الضيف الثقيل

ظهرت نتيجة تنسيق القبول بالجامعات، وتم قبولي بكلية التجارة جامعة عين شمس (انتساب) بناءً على رغبتي، حيث إنني كنت موظفًا بالحكومة.

ولما اقترب موعد امتحانات أخر العام، كان لا بد أن أفكر في البحث عن مكان للإقامة الكاملة بالقاهرة أو ضواحيها فترة الامتحانات، حتى أتمكن من الاستقرار والمذاكرة، وذلك بعد حصولي على إجازة اعتيادية من عملي، حيث إنني من أبناء الفيوم.

وقد كانت لنا قريبة تقيم بمصر القديمة مع زوجها وابنتيها في شقة صغيرة بمنزل قديم، ولها ولد متزوج وابنة متزوجة، ويقيم كل منهما بالقرب من بيت الأسرة..

وهي أسرة بسيطة (على قد حالها)، ومهنة الزوج «نجار مسلح»، يخرج لعمله في الصباح الباكر، ويعود مع غروب الشمس مرهقًا يستريح قليلًا ثم يتناول العشاء، وينام حتى الصباح..

وقد اقترح عليّ أخي- رحمة الله عليه- أن أقيم مع هذه

الأسرة خلال مدة الامتحانات، وكان واثقًا بأن (الست) وهي صاحبة الأمر والنهى في البيت، سوف ترحب بإقامتي نظير مبلغ بسيط أقدمه لها..

وقد حظيتْ هذه الفكرة بالتأييد والموافقة من الجميع، رغم أنني لي الكثير من الأقارب بالقاهرة والجيزة، ولكني فضَّلت الإقامة مع هذه الأسرة حتى أكون بكامل حريتي، وأستطيع أن أصرف من جيبي عند اللزوم.

وفعلًا وقبل بداية الامتحانات بيومين، حزمت حقيبة ملابسي وكتبي وتوكلت على الله، وكنت قد حصلت على العنوان من أخي (وطبيت عليهم) كالقضاء المستعجل دون سابق موعد، ولكنهم في الحقيقة رحَّبوا بي، ولم يظهروا أي دهشة أو ارتباك لحضوري المفاجئ، ولكن (الست) كانت تنظر إلى حقيبتي بين الحين والآخر ولا تنبس بكلمة..

وبعد تناول التحية، أخذتها «على جنب وغمزتها بمظروف يحتوي على القرشين اللي فيهم النصيب»، وأخذتهم (بالعافية) بعد أن أفهمتها أنني سوف أقيم عندهم أيام الامتحانات.

قالت وقد اصفر وجهها واخضر:

- وماله يا أخويا من عيني، ده أنت تشرف وتنور، البيت بيتك

والبنات زي إخواتك، ومكانش ليه لزمة التعب ده (تقصد الفلوس).

- أبدًا دي حاجة بسيطة والحكاية واحد، وربنا يديم المعروف، والله أنا ما رضيت أروح بيت عمي أو عمتي، وانتوا أقرب لينا من أي حد.

فقالت مرحبة:

- طبعًا يا خويا وهو ده عشمنا برضو، واعتبر نفسك في بيتك.

ثم قامت البنت الكبرى بإعداد طعام الغذاء بمساعدة أختها.

الكبرى في سن الزواج، حاصلة على دبلوم متوسط، والصغرى في الشهادة الإعدادية.

وبعد تناول الغذاء تم إعداد مكان لنومي داخل حجرة الوالدين!، مما جعلني أصمم على النوم بالصالة على (الكنبة البلدي).

وبدأت الامتحانات..

ولاحظت أن الست تعد لي طعامًا خاصًا مما يكبدها مصروفات أكثر، وبدأت أشفق عليها، حيث إن ذلك يفوق ما دفعته لها بكثير.

وكنت أستذكر دروسي في الصالة حتى ساعة متأخرة من

الليل، جالسًا على الكنبة البلدي وأمامي «ترابيزة» متواضعة ذات مفرش من القماش الباهت.

وكنت أبدأ السهرة بعد أن ينام الجميع ويعلو الشخير..

وعندما أدخل المطبخ أو الحمام كنت أسير على أطراف أصابعي حتى لا أتسبب في إزعاج أحد، وأحيانًا كانت البنت الكبرى تسهر معي وتعد لي الشاي والساندويتشات، وتكون مسرورة جدًا لقيامها بتلك المهمة..

وكانت لا تطلب مني أكثر من نظرة أو ابتسامة حلوة..

وكنت أحقق لها ذلك، ولكن في حدود، نظرًا لأنني كنت جادًا جدًا في معاملاتي وتركيزي في المذاكرة، حيث إن حصولي على مؤهل جامعي سوف يرفع من شأني ومركزي الوظيفي.

وكنت أضع لنفسي جدولًا يوميًّا للمذاكرة ألتزم به وأنفذه بكل دقة، وعندما يزورهم أحد من الأقارب أو الأصدقاء كنت أستأذن وأترك لهم الصالة، حيث لا يوجد حجرة للجلوس، وأدخل إحدى الغرفتين المخصصتين للنوم، وأغلق الباب، وأواصل المذاكرة ممددًا على السرير حتى ينصرف الضيوف..

وذات مساء زارنا زوج ابنتهم وتعرَّف عليّ، ومن أول وهلة أدركت أنه مسيطر على الأسرة بأكملها، وخاصةً البنت الكبرى

(الأصغر من زوجته)، وأحيانًا كان ينفرد بها وكأنها زوجته الثانية!، فلم أسترح له، كما أنه لم يسترح لي..

وبين الحين والآخر، يسلِّط عليّ نظرات الحقد والغيرة، ولم أعرف لذلك سببًا وهو الذي يراني لأول مرة.

وتكررت زياراته، ولم تحضر معه زوجته ولا مرة، رغم أنني أعرفها وتعرفني جيدًا منذ الصغر، وكنت متأكدًا أنها تتمنى أن تراني، حيث كانت إقامتهم في الفيوم بالقرب منا قبل مغادرتها القاهرة، بالإضافة إلى صلة القرابة، وكانت لنا ذكريات مشتركة.

وفي كل زيارة له للأسرة كان يسبب نكدًا للبيت كله وينصرف.

بدأ الاهتمام بي يقل تدريجيًا حتى وصل إلى أدناه، واستنتجت أن المذكور اعترض على وجودي معهم في بيت واحد، رغم أن (الست) كانت تتعشم (عشم إبليس في الجنة) أن أطلب منها يد ابنتها الكبرى بعد أن أنتهي من الامتحانات.

ولكن طموحي كان أكثر من ذلك بكثير، لذلك لم أنمِّ علاقتي مع البنت..

وفيما بعد فهمت أن المذكور كان يحضر للبيت في فترات وجودي بالامتحانات، ويصدر أوامره بضرورة التخلص مني في أقرب وقت ممكن، حيث إنه لا يصح وجودي مع البنات، ولا

يستطيع أحد عدم تنفيذ أوامره، فالجميع يخافونه، مغلوبين على أمرهم أمامه.

ولم أكن في يومٍ من الأيام ضيفًا ثقيلًا على أحد، ولذا لعنت الامتحانات والأيام التي دفعتني للاحتياج إليهم، ولم أرغب في الاستمرار على هذا الحال حتى نهاية الامتحانات، وفكرت مليًا في ترك البيت، ولكن متى؟ وإلى أين؟..

وعندما لـمَّحتُ بذلك لم أجد منهم أي مانع في مغادرة البيت، نظرًا للضغوط الشديدة التي عليهم من المذكور.

وخطرت لي فكرة ألا وهي أن أرجع إلى بلدي، وأحضر إلى القاهرة أيام الامتحانات فقط، وأرجع إلى الفيوم في نفس اليوم، وهي فكرة جيدة ولكنها مضيعة للوقت والجهد، ولكنها تحفظ لي كرامتي وكبريائي.. وقد كان.

وفي أحد الأيام وبعد أداء الامتحانات، توجَّهت إلى البيت وحزمت حقيبتي وانصرفت دون غذاء وبلا وداع...

وانقطعت علاقتي بهم من ذلك التاريخ وإلى يومنا هذا.